مدرسة مازونة ومسجدها العتيق دراسة أثرية.

د. بلجوزي بوعبدالله (قسم الآثار– جامعة تلمسان)

ملخص:

كانت المدارس من بين أهم المؤسسات الدينية الثقافية والعلمية بالجزائر في العهد العثماني، ولم تكن موجودة إلا في بعض المدن الرئيسية كقسنطينة والجزائر ووهران ومازونة ومعسكر، ومن بين المدارس التي نجحت في تقلد أحد أهم المراكز الدينية في العهد العثماني هي مدرسة مازونة الشهيرة، والتي تطَّرق لوصفها الكثير من مؤرخي وشعراء تلك الفترة مبرزين دورها الهام في الحياة العلمية والثقافية، وبالنظر الى انها لا تزال قائمة الى اليوم تمارس مهامها، ارتأينا ان نسلط الضوء عليها، وعلى ومسجدها العتيق الذي بني بجانبها من زاوية أثرية.

Abstract:

Archeological study of Mazouna school and its old Mosque.

The schools are among the most important religious cultural and scientific institutions in Algeria during the Ottoman era, it did not exist except in some major cities as Constantine Algiers, Oran, Mazouna and Mascara

Among these schools which was famous in the most important religious center in the ottoman era ;Mazouna school which touched to be described by lot of historians and poets of this period.

This is the reason that push me to make an archeological research and study on this school and its old mosque .

مقدمة:

على الرغم من أن مازونة ومدرستها فقدت الزعامة الدينية والسياسية في بايلك الغرب بانتقال عاصمة البايلك من مازونة إلى معسكر في بداية القرن 12هـ/ 18م، إلا أن المدرسة بقيت تمارس دورا كبيرا في الحياة الدينية والثقافية، والذي استمر حتى في الفترة الاستعمارية، ولا تزال تمارس دورها إلى اليوم، ومن هذا المنطلق جاءت هذه الدراسة لتسلط الضوء على هذه المدرسة ومسجدها العتيق من الناحية الاثرية.

1 - لمحة تاريخية عن مدينة مازونة في العهد العثماني:

كانت بداية نشأة مازونة على ما تذكر المصادر التاريخية على شكل قرية صغيرة، ثم تطورت مع مرور الزمن إلى مدينة كبيرة، وأصبحت فيما بعد عاصمة سياسية وإدارية لإحدى مقاطعات الجزائر في العهد العثماني.

لقد اختار حاكم الجزائر حسن بن خير الدين سنة 971هـ/1563م مدينة مازونة لتكون أول عاصمة لبايلك الغرب، وعين عليها الباي ابن خديجة لتوليها، عمل هذا الأخير على إقامة التنظيم الإداري في المنطقة الغربية، وعين القواد على مختلف القبائل التي يشرف عليها

وتجدر الإشارة هنا إلى أن جميع المصادر التي تطرقت إلى بايات الغرب الجزائري تفتقر إلى معلومات عن البايات الذين تولوا الحكم في مازونة، بدءا من الباي الرابع إلى غاية الباي محمد بن عيسى وهو السادس عشر من باياتها، حيث يؤكد محمد بن يوسف الزياني أنه بحث عن أسمائهم وتاريخهم إلا أنه لم يجد ذلك، لا منصوصا في كتاب، ولا مشى به تواتر بين الناس.

وبعد الباي محمد عيسى جاء الباي شعبان الزناقي الذي تولى سنة 1090هـ/1679م، وأخذ يشن الغارات ضد الإسبان بصفة دورية، إلى أن استشهد في المعركة التي خاضها ضد الأسبان في وهران سنة 1098هـ/1686م من طرف أحد عملاء قبيلة بني عامر المتعاونة مع الإسبان، وبمقتله رفع الحصار عن وهران.

تولى بعده الباي مصطفى بو شلاغم، وفي عهده تم نقل مقر بايلك الغرب من مازونة إلى معسكر سنة 1113هـ/1701م، ثم تفرغ لأمر وهران، وأخذ يعد العدة لاسترجاعها واستطاع بفضل المساندة القوية التي تلقها من الداي محمد بكداش أن يفتحها سنة 1120هـ/1708م، وبعدها نقل مقر بايلك الغرب من معسكر إلى وهران.

ويبدو أن انتقال عاصمة بايلك الغرب من مازونة إلى معسكر قد أثر سلبا على مكانة ودور مازونة في الأحداث التاريخية بعد أن فقدت الزعامة السياسية في المنطقة، لكن هذا لم يمنع من ان تتبوأ مدرستها مكانة مرموقة، حيث اختصت بتدريس الفقه المالكي وكانت معروفة بكثرة طلبتها، وشهرة علمائها وإلى هذا يشير أبوراس الناصر في معرض حديثه عن مازونة حيث يقول:» ولما ذكر لي الطلبة مازونة وكثرة مجالسها ونجابة طلبتها وقريحة أشياخها سافرت إليها...».

2 - موقع المدرسة والمسجد العتيق:

تقع هذه المدرسة ومسجدها بالجهة الشمالية من حي القصبة العتيق(المخطط رقم:01) بمدينة مازونة(ولاية غليزان)، وتطل واجهتها الرئيسية على نهج بوعلوفة.

3 - المؤسس وتاريخ التأسيس:

يرجع تأسيس هذه المدرسة ومسجدها إلى أحد المهاجرين الأندلسيين المعروف باسم الشيخ امحمد بن الشارف في نهاية القرن 10هـ/16م، وإلى هذا يذهب جل الذين كتبوا عن تاريخها ، ولا يزال ضريحه موجودا في إحدى غرف المدرسة إلى الآن.

وتعتبر هذه المدرسة من أقدم المدارس التي أُسست في العهد العثماني، وظلت محافظة على سمعتها حتى بعد انتقال كرسي الحكم من مازونة إلى معسكر، وكان لها نظام جيد وتقاليد متينة استمدتها من صلتها بالتعليم في تلمسان والأندلس والمغرب الأقصى، وقد اشتهرت بالخصوص بتدريس الفقه والحديث وعلم الكلام.

وهذا ما جعلها مقصدا للطلاب من مختلف النواحي، وبالخصوص في القطاع الغربي الجزائري، وقطاع شرق المغرب الأقصى كبلاد الريف ونواحي تازة ووجدة.

وقد تخَّرج من هذه المدرسة علماء أجلة كان من أبرزهم أبو راس الناصر في أواخر العهد العثماني، والذي أقام بها ثلاث سنوات كطالب علم، وقد أفادنا في كتابه (فتح الإله) بشهادة تقديرية عن دور مازونة العلمي، في تلك الفترة وذلك في قوله:» ولما ذكر لي الطلبة « مازونة « وكثرة مجالسها ونجابة طلبتها وقريحة أشياخها سافرت إليها، ومررت في طريقي على الشيخ الرباني، والهيكل الرحماني السيد محمد بن لبنة، فسكنت لما وصلت « قرية الغيران»، إحدى جهات « أبي علوفة « فكنت أقرأ النهار وأصرف ما آكل في الليل، فأول ما بدأت على الشيخ مصطفى بن هني...».

وبعدما ذكر أبو راس مشايخ أبي علوفة قال:»...ثم إني انتقلت من قراءة شيوخ « أبي علوفة « المذكورين – وهم أربعة- كما مر بنا – إلى القراءة على شيوخ مازونة...».

وقول أبو راس هنا يدل على المكانة العلمية التي كانت تحتلها مازونة، والتي استمرت إلى غاية الاحتلال الفرنسي وبعده، حيث يذكر المهدي البوعبدلي بقاء مدرسة مازونة محط رحال طلبة المغرب الأقصى إلى الحرب العالمية الثانية، أين قلّ بريقُها وفقدت شهرتها السابقة ويذكر بوسكي (Bousquet)أنها كانت قبل الحرب العالمية الثانية تستقبل من 40 إلى 60

طالبا، وأثناء مروره بها لم ير بها سوى 10 طلاب، مما يدل على تقهقر وتراجع دور المدرسة بعد الحرب العالمية الثانية .

4 -التغيرات والتجديدات التي طرأت على لمدرسة ومسجدها:

لقد طرأ على هذه المدرسة ومسجدها عدة تغيرات كان أولها إعادة ترميمها عدة مرات من طرف بايات الغرب الجزائري، وفي زمن الاحتلال الفرنسي لمازونة أعادت السلطات العسكرية ترميم المسجد سنة 1269هـ/1852م، ومر بها هاينريش فون مالتسان وذكر بأنه وجدها نصف مهدمة.

ولكن رغم التغيرات التي طرأت عليها أثناء الاحتلال الفرنسي إلا أنها مازالت تحتفظ ببيوت طلبتها ومسجدها الذي ما يزال يتوافد عليه الطلبة من نواحي مختلفة من البلاد لحفظ القرآن .

5 - الدراسة الوصفية:

5 - 1 المخطط العام :

يتكون هذا المبنى من قسمين، قسم أول في الجهة الغربية ويمثله المسجد ومئذنته وجاء مربع الشكل طول ضلعه 12م، وقسم ثاني في الجهة الشرقية انتظم وفق مخطط غير منتظم الشكل يتوسطه تقريبا صحن تتوزع عليه غرف الطلبة من الجهة الشمالية، والغرف الضريحية من الجهة الجنوبية، ويمثل هذا القسم المدرسة.(المخطط رقم:02)

5 - 2 الوصف الخارجي:

يمتد المبنى الذي يضم المدرسة ومسجدها من الشمال الشرقي إلى الجنوب الشرقي على أرض منحدرة مما جعل المسجد في مستوى منخفض عن المدرسة .

جاءت واجهات هذا المبنى ككل ملاصقة لبعض المساكن من الجهة الشمالية الشرقية والجهة الجنوبية، وأما الواجهة الجنوبية الغربية فتطل على زقاق ضيق يؤدي إلى داخل حي القصبة، وتبقى الواجهة الرئيسية في الجهة الشمالية تطل على الشارع الرئيسي.

يسبق المدخل الرئيسي للمسجد(الصورة رقم:01) والمدرسة فناء صغير على شكل صحن نلج من خلاله إلى بيت الوضوء الواقع في الجهة الجنوبية الشرقية للمسجد، وكذلك إلى المسجد والمدرسة. (الصورة رقم: 02)

ويعلو المبنى ككل ثمان قباب، خمسة تتوزع على سقف المسجد وثلاثة منها تعلو الغرف الضريحية.(المخطط رقم:03)

5 - 3 الوصف الداخلي:

يتم الدخول إلى المدرسة بالصعود عبر درج مكون من ثمان درجات، يفضي مباشرة إلى صحن المدرسة والذي جاء شكله مستطيلا طوله 16م وعرضه 06م .(الصورة رقم:03)

يحيط بالصحن من جميع جهاته غرف باستثناء الجهة الغربية التي تمثل الجدار الشرقي لبيت الصلاة، وأما الغرف فمنها ما هو مخصص لمبيت الطلبة، ومنها ما يمثل غرف ضريحيه لأئمة تداولوا على التدريس في هذه المدرسة.

ونبدؤها بالجهة الشمالية أين نجد خمس غرف صغيرة بأحجام متساوية تقريبا وبسيطة، أربعة منها مخصصة للطلبة وواحدة تعلوها قبة مضلعة صغيرة يوجد بداخلها قبر سيدي أبي راس المازوني .

وأما في الجهة الشمالية الشرقية فهي الأخرى تحتوي على غرف للطلبة ولكنها أكبر حجما من الأولى، وحسب المكلف بالتدريس في المدرسة فإنها كانت بنفس حجم الغرف السابقة الذكر، فتحت على بعضها البعض أثناء الترميم ليتسع المكان لتحفيظ القرآن الكريم لأكبر عدد من الطلبة.

وفي الجهة الجنوبية نلاحظ غرفتان تعلوهما قبتان متفاوتتان في الحجم، إحداهما تمثل حجرة ضريحيه لسيدي محمد أبي طالب وهي الأكبر، وأما الحجرة الثانية فتعود إلى الشيخ سيدي امحمد بن الشارف، وهو الذي ينسب إليه تأسيس المدرسة.

وقد أصبح دفن المؤسس بمدرسته من الأشياء المعمول بها، وهي ظاهرة جلبها معهم العثمانيون إلى المغرب.

إن التخطيط الذي تقوم عليه هذه المدرسة وإن كان جزء كبير منها قد طرأت عليه تغيرات عبر المراحل التاريخية التي مرت بها، إلا أن الفضاء المعماري الأصلي لها يبدو أنه بقي محافظا تقريبا على نفس التصميم الأول، المتمثل في صحن أوسط تتوزع عليه بيوت الطلبة، ولهذا التصميم ميزة نجدها في أغلب المدارس المغربية إن لم نقل جميعها

وقد خضعت المدرسة لنفس التصميم في المشرق كما في المغرب، بحيث أصبحت تضم بيتا للصلاة وصحنا مركزيا مكشوفا وبيوتا للطلبة وأحيانا نجد بها محراب ومئذنة ، وبمرور الوقت أصبحت العديد من المدارس تضم ضريحا أو أكثر، كما هو الحال في هذه المدرسة، وكذلك مدرسة خنق النطاح بوهران.

واستمر العمل بهذا الطراز خلال العهد العثماني ومن أمثلته بالجزائر مدرسة الجامع الأخضر ومدرسة سيدي الكتاني بقسنطينة ومدرسة مازونة.

-المسجد:

نلج إلى بيت الصلاة عبر بابين أحدهما رئيسي ارتفاعه 2.90م وعرضه 1.60م يحده من الخارج إطار من الحجر الرملي مُشكلا فتحة على هيئة عقد حدوي يتوسط هذا الباب جدار مؤخرة بيت الصلاة ويقع على محور المحراب، وأما الباب الثاني فجاء ضيقا ومفتوحا في جدار القبلة على يسار المحراب، وكان استخدامه على ما يبدو من طرف الإمام للذهاب عبره إلى المكتبة المقابلة لجدار القبلة من الخارج، والوصول عبر درج صاعد إلى صحن المدرسة .

وأما بيت الصلاة فجاء تخطيطه على شكل مربع طول ضلعه 12م، تحده ثلاث بلاطات عمودية على جدار القبلة وأخرى موازية له تشكلها بوائك من 16 دعامة، اثنا عشرة منها مدمجة بالجدران الأربعة المحيطة ببيت الصلاة، والأربعة الباقية منها تتوسط بيت الصلاة. (الصورة رقم:04)

يقوم بيت الصلاة على قبة مركزية مثمنة ترتفع على أربعة عقود نصف دائرية محمولة على أربعة دعامات مربعة من الحجر الرملي وشغلت منطقة الانتقال بحنايا ركنية وغطي وسط كل رواق بقبو أسطواني(الصورة رقم: 05)، في حين شغلت سقف بيت الصلاة في أركانه الأربعة قباب صغيرة مثمنة.

وتسقيف المساجد بهذه الكيفية نجد له مثيلا في الكثير من المساجد التي ترجع إلى الفترة العثمانية على غرار جامع المبايعة بمعسكر وجامع الباشا بوهران، وهو بهذا ينتمي إلى النمط الجديد القائم على بيت الصلاة ذو القبة المركزية الذي حمله الأتراك معهم من تركيا وطُبِق تقريبا على أغلب المساجد الجزائرية.

-خاتمة:

لقد خلصنا في بحثنا هذا حول مدرسة مازونة ومسجدها العتيق، إلى أن هذه المدرسة اكتسبت أهمية كبيرة أثناء الوجود العثماني بالجزائر، وظلت محافظة على سمعتها حتى بعد انتقال كرسي الحكم من مازونة الى معسكر، وأما من الناحية الاثرية فالملاحظ ان المدرسة طرأت عليها الكثير من التعديلات بالزيادة والنقصان حتى تتماشى وعدد الطلبة الوافدين اليها من جميع النواحي، والذي استمر الى اليوم، وأما عن تخطيطها فجاء استمرارا للنظام التخطيطي للمدرسة المغربية القائم على صحن تحيط به بيوت الطلبة وقاعة الدرس، وقد ساد هذا الطراز في بلاد المغرب أكثر من غيرها من مناطق العالم الإسلامي واستمر هذا الطراز في العهد العثماني.

وأما بخصوص المسجد فيبدو انه حافظ على المخطط الاصلي له ولم تمسه تغييرات كثيرة باستثناء بعض الاضافات التي لم تؤثر على الهيكل العام للمسجد، والذي جاء تخطيطه متأثرا بالنظام التخطيطي العام للمساجد العثمانية القائم على قبة كبيرة تتوسط بيت الصلاة تحيط بها قباب وأقبية أصغر حجما منها.

المخططات:

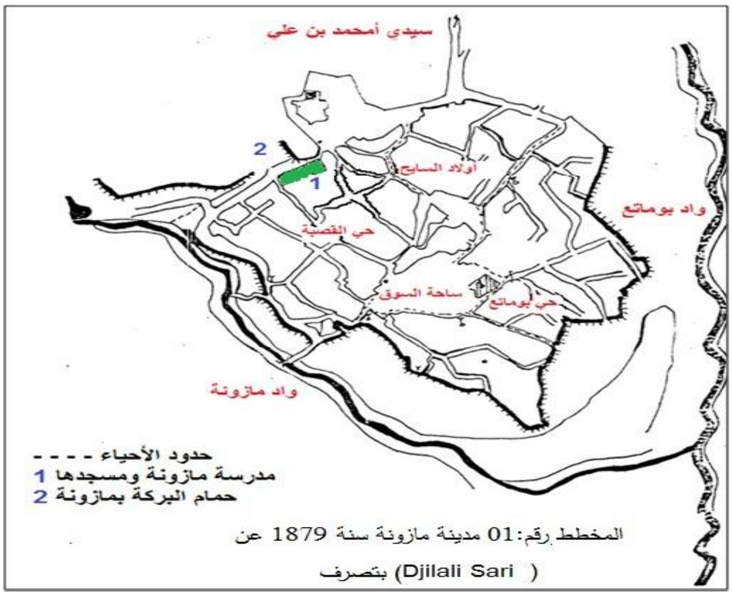

المخطط رقم:01 مدينة مازونة سنة 1879 عن (Djilali Sari) بتصرف

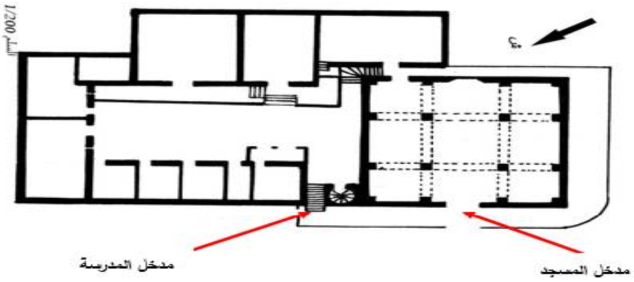

المخطط رقم:02 مدرسة ومسجد مازونة
(من عمل الدارس)

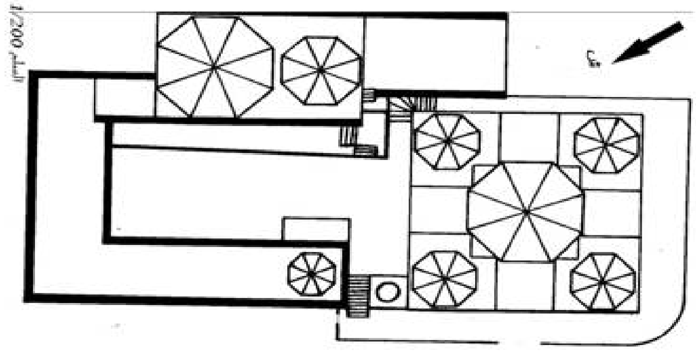

المخطط رقم: 03 سطح مدرسة ومسجد مازونة
(من عمل الدارس)

الصور:

الصورة 01 : المدخل الرئيسي لمسجد مدرسة مازونة

الصورة 02: الواجهة الخارجية لمدرسة مازونة ومسجدها

الصورة 03: صحن مدرسة مازونة

الصورة 04: منظر داخلي لبيت صلاة مسجد مدرسة مازونة

الصورة 05: قباب بيت الصلاة بمسجد مدرسة مازونة

هوامش البحث:

- لمزيد من التفاصيل ينظر المصادر والمراجع التالية:

- الشريف الإدريسي، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مج.01، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1994، ص.(271-272).

- عبد الرحمن ابن خلدون تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج.07، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، 2001، ص.(87-88).

- الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، ط.02، ج.02، ترجمة محمد حجي، ومحمد الأخضر، دار الغرب

الإسلامي بيروت -لبنان، 1983، ص.36.

- مارمول كاربخال، إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي وآخرون، ج.02، دار النشر المعرفة، الرباط- المغرب، 1988، ص359.

- محمد أبي راس الناصري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار ج.01، تقديم وتحقيق: محمد غانم، منشورات مركز البحث في الانتروبولوجية الاجتماعية والثقافية، وهران، 2005، ص.93.

- بوعبدالله بلجوزي، آثار عمران حواضر بايلك الغرب في العهد العثماني مازونة ومعسكر ووهران ومستغانم أنموذجا، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر2، 2012-2013.

- BELHAMISSI Moulay, Histoire de Mazouna (des origines nos jours), Société Nationale d'édition et de diffusion, d'Alger, 1981, p. (3536-).

- KADDACHE Mahfoud, l'Algérie durant la période Ottomane, office des publications universitaire, Alger, 2002. p.138.

- محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق: المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978، ص.192.

- الأغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا في أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق ودراسة: يحي بوعزيز، ج.01، ط.01، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، 1990، ص.(229-230).

- محمد بن يوسف الزياني، المصدر السابق، ص. (192-193).

- محمد ابوراس الجزائري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، حياة أبي راس الذاتية والعلمية، تحقيق: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص.43.

- BERQUE Jacque, le monde méditerranée, retour à Mazouna, Annales économies sociétés civilisations, 27 Année, N°: 01, Janvier- Février, 1972, p.155.

- BELHAMISSI Moulay, op.cit , p.49

- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830)، ط.01، ج.01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص.183.

- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج.01، ص.285.

- ناصر الدين سعيدوني والشيخ المهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ، العهد العثماني، ج.04، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص.197.

- محمد أبو راس الجزائري، المصدر السابق، ص.43.

- المصدر نفسه، ص.43.

- ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص.198.

- BOUSQUET, promenade sociologique, une Médersa déchue, Mazouna, Revue Africaine, N° : 91, 1947, p.305.

- SARI Djilali, les villes précoloniales de l'Algérie occidentale, Nedroma , Mazouna, Kalâa , 2em , Société Nationale d'édition et de diffusion , 1978, Alger, p.47

- Bousquet, op.cit, p.305.

- هاينريش فون مالتسان، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، ج.01، ترجمة أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص.234.

- محمد الباجي بن مامي، مدارس مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحُسيني القرن السابع إلى القرن الثالث عشر الهجري، المعهد الوطني للتراث، تونس، 2006، ص.123.

- MARÇAIS .Georges, , L'Architecture musulmane d'Occident, Arts et Métiers graphique, Paris, 1954.p.285.

- GOLVIN Lucien, Architecture Musulmane La Madrasa médiévale, Edisud, France, 1995, p.173305-.

- MARÇAIS Georges., op.cit, p.285.

- أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها، ج.02، العصر الأيوبي، دار المعارف، مصر، 1969، ص.121.

.MARÇAIS Georges., L›Art en Algérie, Imprimerie algérienne, Alger, 1906. P.132 -

-عبد العزيز لعرج، «مظاهر التأثير العثماني على المنتجات الفنية بالجزائر» المؤتمر الخامس لجمعية الآثار يين العرب، دراسات في اثار الوطن العربي3، الندوة العلمية الرابعة، القاهرة، 2002، ص.(530-531).